المسجد الجامع في قرطبة

● للأستاذ/ محمد حسن قجة ●

– ١ –

يتوافد ملايين السائحين كل عام على قرطبة لزيارة جامعها العظيم الذي مضى على بنائه ما يزيد على اثني عشر قرناً، وهو ثابت راسخ يصارع الزمن.

فلنعش معاً قصة بناء هذا المسجد الجامع منذ بدايتها، لننتهي إلى ما آل إليه حاله اليوم.

استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وهو المعروف بعبد الرحمن الداخل، أن يوطد دعائم دولته. بعد أن أفلح في الفرار من ملاحقة العباسيين الحثيثة، وتمكن من عبور البحر من الشاطىء الأفريقي إلى الشاطىء الأندلسي، وكان ذلك عام ١٣٨هـ – ٧٥٦م⁽¹⁾.

وأنفق عبد الرحمن كثيراً من الوقت والجهد حتى استتب له أمر الأندلس، ففرض الأمن في ربوع البلاد، وصدَّ هجوماً عباسياً من الجنوب، كما صدَّ هجوماً قام به الفرنجة من الشمال، وحينما قبض على زمام الأمور تماماً انصرفت جهوده إلى البناء والعمران – شأنه في ذلك شأن جده الكبير عبد الملك وعمه الوليد – فشرع ببناء قصر الرصافة، ومسجد قرطبة الجامع الكبير.

دعونا نتوقف لحظة أمام أحد أبواب الجامع العظيم.. فمنذ حوالي ثلاثين سنة أقام الأسبان لوحاً كبيراً من المرمر الأبيض وكتبوا عليه بالعربية والأسبانية (العربية في الأعلى) العبارة التالية:

«ذكرى الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر» وذلك بمناسبة مرور ألف عام على وفاته – توفي ٣٥٠هـ – ٩٦١م.

يقف المؤرخون المسلمون وغير المسلمين بإجلال كبير أمام هذا الصرح العمراني الخالد، ولم تهتم كتب التاريخ الإسلامية بجامع اهتمامها بجامع قرطبة ــ رغم آلاف المساجد في العالم ــ وقد أفاضت تلك الكتب في وصفه بصورة دقيقة، فدعاه عبد الواحد المراكشي «الجامع الأعظم»(٢). كذلك لسان الدين بن الخطيب(٣) وأبو القاسم بن بشكوال(٤).

وورد في وصف الحميري لجامع قرطبة ما يلي:

«وفيها المسجد الجامع المشهور أمره، الشائع ذكره، من أجلّ مصانع الدنيا كبر مساحة، وإحكام صنعة، وجمال هيئة، وإتقان بنية، تهمم به الخلفاء المروانيون، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميماإثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف»(٥).

ويقول الشريف الإدريسي في معرض حديثه عن قرطبة: «وفيها الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً»(٦).

وإن عظمة هذا المسجد الجامع وروعة عمارته وإبداع زخارفه وفن بنائه هي الأمور التي أنقذته من التدمير والتخريب بعد دخول الأسبان إلى قرطبة، علماً بأن الأسبان كانوا يدمرون أكثر ما تركه المسلمون من عمائر، في إطار إزالة كل أثر تركه العرب في أسبانيا، وقد تنبهوا إلى خطورة ما يفعلون بعد إتلاف آلاف المباني وإحراق مئات الألوف من الكتب.

ـ ٢ ـ

في يوم ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ الموافق ١٩ تموز (يوليو)/ ٧١١م انتصر طارق بن زياد بجيشه الصغير الشجاع في معركة «وادي لكّة» وألحق هزيمة ماحقة بالجيوش النظامية الكثيفة للقوط بقيادة لذريق(٧).

وبعد هذه المعركة تساقطت المدن الأندلسية بأيدي المسلمين واتخذوا من قرطبة دار إمارة لهم.

وقد تركوا للأديان الأخرى — كعادتهم — أن تمارس عباداتها بحرية، وفي المعابد الخاصة بها، ولم يعمدوا إلى الإبادة الجماعية وإلى محاكم التفتيش — كما فعل الأسبان بعد ذلك بعدة قرون — وقياساً على فتوحات المسلمين الأوائل في الشام والعراق، قام فاتحو الأندلس بمشاطرة نصارى قرطبة كنيستهم التي كانت تعرف باسم «سنت بنجنت» (St vincent) وقد كانت تقع وسط المدينة. فاقتطع المسلمون جزءاً من البناء اتخذوا منه مسجداً، وتركوا الجزء الباقي كنيسة للنصارى، وكان هذا المسجد بناءً متواضعاً بسيطاً قصير الأبواب متطامن السقف، خططه وحدد قبلته حنش الصنعاني(٨).

وحينما استقر الأمر لعبد الرحمن الداخل رأى ضرورة توسيع المسجد الذي حدد قبلته «حنش». وكان لابد لذلك من أخذ الشطر الآخر من الكنيسة، وهو الشطر الذي كان النصارى لا زالوا يشغلونه.

وهنا يضرب لنا التاريخ الإسلامي مثلاً آخر في التسامح وسعة الأفق الحضاري، فالأمير الأموي عبد الرحمن الداخل لم يعمد إلى اغتصاب الكنيسة وطرد النصارى منها، وإنما قام بمفاوضتهم، وطالت المفاوضة أمام إصرار النصارى على رفض كل العروض المغرية التي قدمت إليهم ثمناً لشطر الكنيسة، ثم وافقوا أخيراً شريطة أن يسمح لهم بإعادة بناء كنيسة «سنت أجلح» خارج أسوار قرطبة (San Asciclo)(٩). وقد تم فعلاً بناء تلك الكنيسة عام ١٦٨هـ ٧٨٤م.

— ٣ —

كيف ظهرت صورة مسجد عبد الرحمن الداخل في مرحلته الأولى؟ لقد ترك نصف المسجد باحة خارجية، وسُقف نصفه الآخر، والنصف المسقوف هو الذي يدعى عادة «بيت الصلاة». وكان يتألف في عهد عبد الرحمن من تسع بلاطات تتجه عمودياً إلى جدار القبلة، وذلك حسب الروايات المختلفة، بينما يرى بعض الباحثين المعاصرين مثل «مورنيو» وهنري تراس وسواهما أن عدد تلك البلاطات إنما هو أحد عشر بلاطاً اعتماداً على الحفريات الأثرية في بيت الصلاة(١٠).

والبلاط الأوسط سعته ٧,٨٥م. بينما سعة كل من البلاطات الأخرى ٦,٨٦م. أما السقف فيتألف من ألواح خشبية مسطحة بين عوارض مربعة، وكل لوح منها

مسمّر بالسقف، وفيه من النقوش والزخارف والفصوص والدوائر ما يختلف تماماً عن بقية الألواح. وتحت كل لوح إزار خشبي نقشت عليه آيات قرآنية.

ومن المؤسف جداً أن هذه اللوحات الجميلة قد طالتها يد التخريب والتشويه فمحت معالمها، ولم تبق منها شيئاً، ويعكف مهندسو الآثار الأسبان في الوقت المعاصر على إعادة ما يمكن إعادته من لوحات سقف البلاط الأوسط طبقاً لأوصافها في عهد عبد الرحمن الداخل.

أما أعمدة المسجد فهي جميعاً من الرخام، وكان لبعضها قواعد، وتختلف القواعد من حيث الحجم، كما كان بعضها بلا قاعدة فكأنه بذلك نابع من الأرض، وهذه الأعمدة هي التي استخدمت في تطوير المسجد القديم، وقد أفاد المسلمون من بعض الأعمدة الرخامية القديمة الرومانية والقوطية التي كانت مستخدمة في الكنائس القديمة، فأعادوا زخرفتها بشكل متناسق واستخدموها في بناء المسجد.

وقد ربطت هذه الأعمدة فيما بينها عن طريق عقود متجاورة نصف إسطوانية متراكبة. وكانت العقود السفلى تربط بين الدعائم، في حين تقوم فوقها العقود العليا، مما سمح بجعل السقف مرتفعاً إلى ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة. وقد أضفى ذلك على المسجد بهاءً وجلالاً.

وقد تناوب اللونان الأصفر والأحمر في العقود، بحيث بنى كل قوس من صف من الأحجار الصفراء وثلاثة صفوف من الآجرّ الأحمر ويتناوب ذلك في العقود الدنيا والعليا مما يمنح بيت الصلاة طابعاً زخرفياً متميزاً بروعته.

ويزداد المنظر بهاءً حينما تسقط خيوط الأشعة من النوافذ المثلثة للجدران، فيخال الإنسان وهو داخل بيت الصلاة، أن لون الشفق البرتقالي يظلله بشكل خفيف، مما يجعله يستشعر بعض الهيبة والخشوع. ويصف الشريف الادريسي تلك العقود فيقول: «وقد عقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسيّ غريبة فوقها قسيّ أخرى على عمد من الحجر المنجورمتقنة، وقد جصص الكل منها بالجص والجيار، وركبت عليها نحور مستديرة بينها حزوب صناعية الفص بالمغرة»(١١).

وكان الأسلوب المعماري الذي استخدم في رفع السقف فريداً ومتميزاً من حيث

تراكب الأقواس وإتاحة فرصة كبرى للإضاءة والتهوية، وهذا الأسلوب للعقود المتراكبة نعثر على ما يشبهه في مسجد دمشق الأموي الذي بناه الوليد بن عبد الملك عام ٩٢هـ أي قبل مسجد قرطبة بأكثر من سبعين سنة. كما نعثر على بعض أمثلة لتراكب الأقواس والعقود في بناء بعض الجسور القديمة، في أسبانيا. ولكن مسجد قرطبة طور تلك الفكرة المعمارية بحيث يرتفع السقف إلى أعلى مسافة ممكنة.

أما الصحن الخارجي للجامع فقد أمر عبد الرحمن بغرسه بالأشجار وكلف بذلك «عبد الله صعصعة بن سلام» ولا تزال أشجار التارنج تملأ صحن المسجد حتى يومنا هذا. وأصبح ذلك قاعدة متّبعة في سائر مساجد الأندلس بعد ذلك.

توفي عبد الرحمن الداخل قبل ان يستكمل بناء المسجد الكبير، فتابع ابنه هشام العمل، وكانت بذلك المرحلة الثانية في بنائه.

كان عبد الرحمن قد أرجأ بناء المئذنة حتى يستكمل الصحن وبيت الصلاة، وكان أحد أبراج القصر المجاور يتخذ مئذنة في عهده ولكن الموت عاجله قبل أن يبني المأذنة.

وهكذا تولى ابنه هشام بناءها بجانب الباب الرئيسي الذي كان يقع وسط السور الشمالي، وكان بناؤها من الناحية الخارجية للسور. وكان ارتفاعها في عهده أربعين ذراعاً. وقد تهدمت، وتم كشف أثرها حديثاً.

كما بنى هشام في آخر بيت الصلاة سقائف للنساء، وفي شرقي صحن الجامع مكاناً للوضوء(١٢).

— ٤ —

لم يطرأ أي تعديل على الجامع في عهد الحكم بن هشام. ولكن المرحلة الثالثة في تطوير البناء تمت في عهد عبد الرحمن بن الحكم، المعروف بعبد الرحمن الثاني أو الأوسط (٢٠٦ ــ ٢٣٨هـ) (٨٢٢ ــ ٨٥٢م). وكان هذا الأمير مصلحاً أسس الدواوين ودار الطراز ودار السكة، ورتب الري والزراعة، واعتنى بالعمران.

ونظراً لشيوع الأمن والاستقرار، فقد توسعت قرطبة، وكثر سكانها، وضاق عنهم مسجدها الجامع. وكان لابد ــ تمشياً مع ذلك التوسع السكاني ــ من توسعة المسجد لكي يلبي حاجات سكان قرطبة.

وقد تم توسيع المسجد في عهد عبد الرحمن الثاني على مرحلتين:

الأولى: وزاد فيها عبد الرحمن بلاطين جانبيين إلى بلاطات المسجد التسع فبلغت بذلك أحد عشر بلاطاً، ثم مدهما بسقيفتين تحيطان بصحن الجامع كانت كل منهما على تسعة عشر عموداً رخامياً وذلك عام ٢١٨هـ ــ ٨٣٤م ووصل بينهما بسقيفة شمالية شكلت مؤخر الجامع وقامت على ثلاثة وعشرين عموداً..

الثانية: وقد كان التوسع فيها أكبر، وتمت عام ٢٣٤هـ ــ ٨٤٨م.

وامتد خلالها التوسع جنوباً، وذلك بنقب جدار القبلة والاتجاه به جنوباً صوب النهر، وبلغ عمق تلك الزيادة خمسين ذراعاً وعرضها مائة وخمسين ذراعاً. واستخدم فيها ثمانون عموداً رخامياً نحتت لهذا الغرض. ويبدو أنه كان في قرطبة مصنع على درجة فائقة من الدقة والفن لصناعة الرخام وزخرفته[١٣].

وقد أشرف على هذا العمل قاضي قرطبة «محمد بن زياد» ونفذه أقرب فتيان الأمير إليه وهما نصر ومسرور.

ولا تختلف هذه الزيادة في طبيعتها الفنية والمعمارية عن مسجد عبد الرحمن الداخل، إلا أن العقود الدنيا الملاصقة للأعمدة تبدو وملفوفة بشيء من بروز محدودب، وقد برز من الأعمدة أربعة ضخام تلتصق بعضادتي المحراب الثاني[١٤].

وفتح عبد الرحمن الأوسط أربعة أبواب في بيت الصلاة اثنين من جهة الشرق، واثنين من جهة الغرب، وقد هدم البابان الشرقيان عند زيارة الحاجب المنصور، بينما بقي البابان الغربيان حتى يومنا هذا. وكانا يحملان اسمي «باب الوزراء» و«باب الأمير». أما اليوم فيحملان تسمية «باب سان استيبان» و«باب دي لوس ديانيس» ويعرف كذلك اليوم باسم «باب سان ميجل».

وتوفي عبد الرحمن الثاني قبل أن يتم ما أراده من عمارة المسجد الجامع الكبير، فتولى ابنه محمد الأول، سنة ٢٤١هـ ــ ٨٥٥م إكمال ما يلزم من زخرفة الأعمدة والعقود والأسقف. وكانت المرحلة الرابعة في عهده بإضافة المقصورة وتوثيق الأبواب عام ٢٥٠هـ ــ ٨٦٤م. وهو أول من اتخذ مقصورة في الجامع. ولا يزال على باب الوزراء (باب سان استيبان) نقش عربي كوفي نصّه:

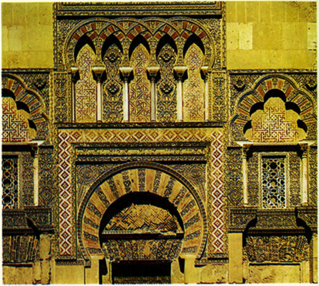

● الواجهة الغربية للمسجد بعد الترميم ●

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمر الأمير أكرمه الله محمد بن عبد الرحمن ببنيان ما حكم به من هذا المسجد وإتقانه رجاء ثواب الله عليه وذخره به، فتم ذلك في سنة إحدى وأربعين ومائتين، على بركة الله وعونه. مسرور ونصر فتياه»(١٥).

وفي عهد المنذر بن محمد تم إحداث زيادة جديدة وهي بيت المال، وكان بناؤه داخل صحن الجامع، وذلك لوضع الأموال الموقفة لغياب المسلمين، ولا يزال في المسجد الأموي في دمشق موضع يعرف باسم «قبة الخزنة».

كما أمر المنذر بتجديد السقاية، وإصلاح السقائف(١٦).

وحينما جاء أخوه عبد الله أضاف زيادة أخرى وهي أنه أمر بوصل المسجد بقصر الإمارة المجاور عن طريق رواق مغطى من طرف المسجد بستارة بحيث يدخل الأمير

المسجد ويخرج من غير أن يراه أحد. وقد استمر هذا التقليد متبعاً في جامع قرطبة طيلة الحكم الأموي.

ـ ٥ ـ

لعل من الصدف التي تلفت النظر أن أبرز الحكام الأمويين للأندلس كان كل منهم يدعى عبد الرحمن، وأنهم حكموا أطول الفترات خلال الحكم الأموي الذي دام ٢٨٤ عاماً تعاقب خلالها ١٦ أميراً وخليفة، وكان ثلاثة منهم يدعون «عبد الرحمن» وهم:

- عبد الرحمن الداخل الذي حكم ٣٤ عاماً
- عبد الرحمن الأوسط الذي حكم ٣٢ عاماً
- عبد الرحمن الناصر الذي حكم ٥٠ عاما

وقد بلغ الأندلس ذروة مجده ونفوذه وإشراقه في عهد عبد الرحمن الناصر الذي حكم (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) ـ (٩١٢ ـ ٩٦١م)

كانت مئذنة هشام في الجامع الكبير قد أصابها بعض التصدع، ورأى الناصر أن ترميمها لا يجدي لأنها لا تتناسب مع عظمة الجامع. وقرر بدلاً من ذلك بناء مئذنة جديدة تليق بالمسجد العظيم وبأبهة الخلافة. فالناصر كان قد أعلن نفسه خليفة بعد زعزعة الخلافة العباسية في بغداد على يد الفرس والأتراك، وإعلان الخلافة الفاطمية في شمال أفريقية.

وهكذا أمر عبد الرحمن الناصر ببناء صومعة جديدة للمسجد، وأحضر لذلك العمال المهرة والمهندسين والأحجار الضخمة.

وقد أمر أولاً بهدم صومعة هشام وهدم السور الشمالي توطئة لتوسيع المسجد من هذه الجهة.

وأصبحت صومعة عبد الرحمن الناصر مثالاً يحتذى في بناء المآذن في الأندلس والمغرب، وقد حفر أساسها حتى وصل إلى الماء. ودام العمل فيها ١٣ شهراً. وتتميز بأن لها مطلعين منفصلين متلاصقين، بينهما جدار، ولا يتصل المطلعان إلا في أعلى بنائها ولكل مطلع ١٠٧ درجات.

انتهى العمل في المئذنة الجديدة عام ٣٤٠ هـ ــ ٩٥٠م. وكانت قاعدتها مربعة، وضلعها ٨,٤٨م وارتفاعها حوالي ٤٠ متراً. وقد نصب في أعلاها سفود يحمل ثلاث تفاحات فوق بعضها: الوسطى من الفضة، والأولى والثالثة من الذهب. وارتفاع كل تفاحة ثلاثة أذرع ونصف وتلوح من بعيد ببريقها الأخاذ.

وكان باب أحد المطلعين يطل على صحن الجامع، وباب المطلع الآخر يطل على الطريق الخارجي، وقد كتب عن ذلك كثير من المؤرخين بدهشة وإعجاب،(ابن الخطيب، ابن عذارى ابن خلدون.... الخ).

وكان جدار المئذنة المطل على صحن الجامع وبيت الصلاة مزداناً بثلاثة صفوف من النوافذ المزدوجة. بينما كان في الجدران الأخرى صفان فقط من هذه النوافذ.

وفي عام ١٥٨٩م أصيبت قرطبة بزلزال عنيف أحدث أضراراً بالغة بالمئذنة، فظهرت الشقوق في أعلاها وفي جسمها، ولكن المهندس القرطبي «هرنان ويث» أنقذها من الانهيار، وذلك بإحاطة الجدران الخارجية بغلاف من الحجارة قصد تقوية القاعدة لكي تتمكن من تحمل جسم المئذنة العلوي.

وفي العصر الحديث تمكن المهندس «دون فيليث هرنانديث» المتخصص بجامع قرطبة أن يكشف عن الجدار الإسلامي للصومعة، كما تمكن أن يهتدي إلى نوافذها وزخارف تلك النوافذ. ويبلغ ارتفاع المئذنة اليوم بعد تصدعها ٢٦ متراً أما التفاحات الثلاث فلا أثر لها.

ولم يكتف عبد الرحمن الناصر ببناء الصومعة، بل كانت المرحلة الخامسة من تطوير المسجد على يديه، فقد قام بترميم جدار واجهة بيت الصلاة المطلة على صحن الجامع، وتقوية للجدار بنى واجهة جديدة ملتصقة بالقديمة.

ومن جهة ثانية قام الناصر بإصلاح باب الوزراء «سان استيبان» وبنى أمامه ظلة تعتمد على مساند ملفوفة.

ولا يزال هذا الباب يحمل نقشاً هذا نصه:(١٧):

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، أطال الله بقاه، ببنيان هذا الوجه وإحكام إتقانه تعظيماً لشعائر الله ومحافظة على حرم

بيوته التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولما دعاه على ذلك، من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر، فتم ذلك بعون الله في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة، على يدي مولاه ووزيره وصاحب مبانيه «عبد الله بن بدر». عمل سعيد بن أيوب».

ــ ٦ ــ

أما المرحلة السادسة من عمر المسجد العظيم فقد تمت أيام الخليفة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ ــ ٣٦٥هـ) ــ (٩٦١ ــ ٩٧٦م) وقد رأى الخليفة أن المسجد ضاق بمصليه، وأن التزاحم صار شديداً مما يقتضي توسيع المسجد، فأمر حاجبه عبد الرحمن الصقلبي بتهيئة ما يلزم لذلك، وتم إعداد المهندسين والفنيين، وإحضار المواد اللازمة[١٨].

وكان التوسيع من جهة الجنوب، وذلك بمدّ جميع البلاطات على عمق اثني عشر عقداً.

والأمر الجديد في توسعة الحكم المستنصر بالله هو إدخال نظام القباب لأول مرة في بناء المسجد، ويبدو أن مهندسي الجامع قد تأثروا بنظام المساجد التونسية في جامعي الزيتونة والقيروان.

وقد ارتفعت قبة كبيرة مخرمة على مدخل البلاط الأوسط من زيادة الحكم، كما أقيمت قبة أخرى فوق المحراب الجديد، وذلك في سنة ٣٥٤هـ ــ ٩٦٥م[١٩]. وإلى جانب القبة الأخيرة أقيمت قبتان.

وقد أطلق على القبة الكبرى اسم «قبة الضوء» ويبدو أن الغرض منها كان إدخال الضوء، بينما أطلق على القبة الثانية اسم «قبة المحراب».

وإضافة إلى ذلك تم رفع سقف البلاط الأوسط عن بقية البلاطات، ونلاحظ، فيما بعد، كيف تأثرت مساجد الموحدين في الأندلس والمغرب بهذا اللون من فن العمارة.

وفي العام نفسه تم تنزيل الفسيفساء المذهبة بجدران الجامع[٢٠]. أما في العام الذي تلاه وهو ٣٥٥هـ ــ ٩٦٦م. فقد تم نصب مقصورة من الخشب منقوشة في باطنها

وظاهرها، امتدت على خمس بلاطات، وفي عام ٣٥٦ هـ ـــ ٩٦٧م. أجري الماء إلى سقايات الجامع، وفي ذلك قال الشاعر محمد بن شخيص الذي كان معاصراً للحكم المستنصر:(٢١).

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف ... من أعذب الماء نحو البيت يجريها

كما أقام منبراً له تسع درجات (٢٢) وفيه ٣٦٠٠٠ وصلة خشبية.

من الضروري في هذا المقام أن نتحدث عن المميزات الفنية لتوسعة الحكم المستنصر بالله، لأن الإضافات التي أحدثها مهندسو الحكم في جامع قرطبة تعتبر انعطافاً كبيراً في فن العمارة، وإبداعاً لم يُسبقوا إليه من قبل.

ويمكننا تتبع أبرز هذه المميزات الفنية فيما يلي:

أ ـــ القباب:

وقد بنيت لأول مرة في عهد الحكم المستنصر، وتعتمد على هيكل من الضلوع المتقاطعة فيما بينها، مما ينشأ عنه أشكال نجمية في وسطها تقوم قبيبة مفصصة. وبين الضلوع تصل زخارف جميلة، ومن الأعلى سقفت بالقرميد.

ويتفق غالبية المؤرخين على أن قباب جامع قرطبة هي الأولى من نوعها بهذه الدقة الفنية، وهي فن مشرقي بحت لم يتأثر بالعمارة الرومانية.

والقباب المشابهة أو المماثلة إنما ظهرت بعد ذلك، مثل قباب جامع أصفهان الكبير في القرن الحادي عشر الميلادي ـــ الخامس الهجري.

وقبة الضوء الكبرى تمتاز بتعدد نوافذها، فهي ذات ست عشرة نافذة، أربع في كل جانب من جوانب القاعدة.

ومن قرطبة انتقل هذا الشكل، أول ما انتقل، إلى طليطلة ونلاحظه في مسجد الباب المردوم هناك. ومن هذا المسجد في طليطلة انتقل فن القباب القائمة على تقاطع الضلوع إلى الكنائس النصرانية في طليطلة وغيرها.(٢٣).

وفي سرقسطة قامت قبة جامع الجعفرية على مبدأ تقاطع الضلوع، ومن هذه القباب انطلق التأثير المعماري ليغزو العمارة الأسبانية والفرنسية، حيث نلاحظ كنائس قشتالة ونافارا في أسبانيا، ودير «موساك» و«اورلون» و«سان بليز» في فرنسا(٢٤).

ب ــ العقود المفصصة والمتشابكة:

وقد شاعت هذه العقود على يد مهندسي الحكم في زيادته على الجامع. وكان من شأن هذه العقود المتشابكة أن تضفي جواً من الجمال والمهابة، وأن تتحمل القباب التي ارتكزت عليها بحيث ضُمن توزيع الضغط على سائر الأركان بعد أن ارتبطت أجزاء العقود فيما بينها.

ج ــ المحراب:

كان أكبر جهد بذله مهندسو الحكم في محراب الجامع. فالمحراب هو أجمل مافي الجامع، وهو الذي يحدد اتجاه القبلة. وقد أقيمت فوقه قبة المحراب، وإلى جانبها القبتان الأخريان، وعلى واجهته سبعة عقود ثلاثية الفصوص مزججة دقيقة التكوين، مزينة بالفسيفساء المذهبة على أرض الزجاج اللازوردي.

وعلى رأس المحراب خُصّة من الرخام مشبوكة محفورة منمقة تشبه القوقعة المقلوبة. وفي واجهته لوحتان جانبيتان من الرخام على شكل إزار للمحراب، نقشت عليهما توريقات وتشجيرات غاية في الجمال والروعة والدقة.

أما مقاييس المحراب: فقد بلغ ارتفاعه ثلاثة عشر ذراعاً ونصف الذراع، بينما بلغ عرضه من الشرق إلى الغرب سبعة أذرع ونصف، وطوله في العمق ثمانية أذرع ونصف⁽²⁵⁾.

د ــ الساباط:

وهو ممر مسقوف، أو رواق، وقد بني في عهد الحكم بعرض أربعة أمتار ونصف على طول جدار القبلة، ويتألف من طابقين، أرضي يقطعه جوف المحراب، وعلوي يمتد على طول الجدار وهو يتألف من خمس غرف متصلة يفصل بينها ثمانية أبواب، وفي الطابق الأعلى قبوات نصف أسطوانية تعلو الأبواب. وكان الساباط يصل بين المسجد وقصر الخلافة المجاور.

وقد نقشت على مدخل الساباط العبارة التالية:

«الملك لله على الهدى، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء، أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله

بعمل هذا المشرع إلى مصلاه، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليخ وأحمد بن نصر وخالد ابن هاشم ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب، الحمد لله»(٢٦).

– ٧ –

وتأتي المرحلة السابعة والأخيرة أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر. وكان سبب توسيع المسجد هو نفسه دائماً. فسكان قرطبة يزدادون، والمسجد الجامع يضيق عنهم، فالمنصور قد استقدم قبائل البربر ليتخذها جنوداً في جيشه لقتال نصارى الشمال. وكان لابد للمسجد الجامع أن يتوسع ليستوعب القفزة السكانية للمدينة(٢٧).

بدأ العمل في توسيع المسجد عام ٣٧٧هـ ـــ ٩٨٧م، وانتهى عام ٣٨٠هـ ـــ ٩٩٠م. ولم يكن التوسع جنوباً كما جرت العادة سابقاً، لأن المسجد كان قد اقترب من النهر، ولم يتم غرباً كذلك لأن قصر الخلافة كان من هذه الجهة. وهكذا تم التوسع شرقاً بإضافة ثماني بلاطات جديدة على طوله كله من جهة الشرق.

ولكي يتم ذلك للمنصور، قام بنزع ملكية الدور والعقارات المجاورة، وعوَّض أهلها مالاً وعقارات، وقد شارك المنصور في البناء بنفسه، كما استخدم فيه أسرى النصارى(٢٨). واستخدم في البناء تراباً جلبه من مناطق قشتالة في الشمال حيث النفوذ الأسباني. وحينما فتح مدينة «شنت ياقب» (سانتياغو حالياً) في أقصى الشمال الغربي هدم كنائسها وذوب نحاس الأجراس واتخذ منه مادة لصنع الثريات في المسجد وتصفيح أبوابه(٢٩).

وقد انتقم الأسبان بعد ذلك حينما استولوا على قرطبة، فأجبروا الأسرى المسلمين على إعادة بناء كنائس «شنت ياقب» وحمل أجراس كنائسها على ظهورهم.

بلغت بلاطات المسجد في شكلها النهائي في عهد المنصور تسعة عشر بلاطاً، ورغم اتساع المسجد فإنه فقد تناسقه لأن المحراب الذي كان يتوسطه في عهد الحكم أصبح الآن متطرفاً، ورغم إتقان البناء ووثوقه أيام المنصور إلا أنه لم يكن بالدقة والروعة التي بلغها أيام الحكم المستنصر بالله(٣٠).

وفي الجدار الشرقي الجديد لبيت الصلاة فتح المنصور ثمانية أبواب، مع المحافظة على بقايا الأعمدة والأبواب في زيادة الحكم، فأصبح بذلك لبيت الصلاة ستة عشر باباً،

نصفها في الجهة الشرقية، ونصفها في الجهة الغربية إلى جانب ثلاثة أبواب في الشمال تدلف إلى صحن الجامع، وبابين جانبيين من الصحن إلى بيت الصلاة، وكل الأبواب ملبسة بالنحاس الأصفر ومزخرفة أجمل زخرفة، كل باب بصورة مختلفة ولكل باب حلقة في غاية الدقة والجمال.

— ٨ —

مضى أكثر من قرنين، ومر عصر ملوك الطوائف ثم المرابطين فالموحدين، ولم تطرأ على المسجد أية زيادة، اللهم إلا بعض الترميم والتجديد. في عصر الموحدين. وقد أصبح الجامع في عصرهم مركزاً للاحتفالات بالمناسبات الدينية وبخاصة ليلة القدر[٣١]. كما بقي الجامع محجاً يسعى إليه المسلمون من الأندلس وأفريقيا يدخلونه خاشعين متأملين جماله وروعته وعظمته.

وفي يوم ١٥ صفر ٦٠٩هـ — ١٧ تموز «يوليه» ١٢١٢م جرت معركة «العقاب» الفاصلة الحاسمة في التاريخ الأندلسي والإسلامي، وانهزم فيها جيش المسلمين شر هزيمة. وأعقب هذه الهزيمة تساقط المدن الأندلسية بأيدي الأسبان، وإخراج المسلمين منها أو أبادتهم.

وبعد أقل من ربع قرن تمكن فرناندو الثالث من الاستيلاء على قرطبة سنة ٦٣٤هـ — ١٢٣٦م. وكان أول ما فعله هو دخول المسجد العظيم مع الأسقف «دي اوسما» وتحويله إلى كنيسة سميت باسم «كاتدرائية سانتا ماريا» الكبرى.

حقاً إن الأسبان كانوا متعقلين أمام الجامع الكبير، فلم يهدموه كما فعلوا بغيره، وإنما بدأوا يغيرون ملامحه شيئاً فشيئاً بإضافة الزخارف المناسبة لطقوسهم.

في عام ٧٦١هـ — ١٣٧١م عمد ملك قشتالة «دون أنريكي» إلى إقامة المصلى المعروف باسم مصلى «سان فرناندو» بجوار قبة الضوء التي بناها الحكم. وغطيت جدران هذا المصلى بزخارف محفورة في الجصّ مقتبسة من قصور أشبيلية وغرناطة، وأقيمت عليه قبوة مقتبسة من جامع القصبة بأشبيلية، وقد تهدم منذ زمن بعيد.

واستمر الحال كذلك أكثر من مائة سنة حتى إذا كان عام ٨٩٥هـ — ١٤٨٩م قام الأسقف «أنييجو مانريكي» بهدم عقود البلاطات الخمسة مع أعمدتها الممتدة من

الجدار الغربي حتى مصلّى «فيلا فسيوسيا» وبنى جدارين طوليين يغطيهما سقف خشبي وكان ذلك أول تشويه كبير يصيب المسجد.

أما التشويه الخطير فهو الذي حدث سنة ٩٢٩هـ ــ ١٥٢٣م بعد أن خرج آخر العرب والمسلمين من الأندلس ــ وهو الذي تمثّل في هدم جزء كبير من زيادة عبد الرحمن الثاني والحاجب المنصور، بقصد إقامة كنيسة قوطية الطراز في قلب الجامع وقد عارض المجلس البلدي وأعيان قرطبة بشدة هذا العمل حرصاً منهم على جمال الأثر المعماري الفريد في العالم.

وتمسك الأسقف «دون الونسومانريكي» بموقفه الداعي للهدم، وعرض الأمر على الإمبراطور «شارلكان» الذي وافق على الهدم من غير أن يرى الجامع أو يزور قرطبة.

ولكن الإمبراطور حينما زار قرطبة بعد عام واحد، سنة ٩٣٠هـ ــ ١٥٢٤م وشاهد الجامع العظيم وما لحقه من تشويه بالهدم، ندم على سماحه بالهدم، وقال عبارته المشهورة مخاطباً الأسقف وأهالي قرطبة:

«لو كنت قد علمت ما وصل إليه ذلك، لما كنت قد سمحت بأن يمسّ البناء القديم، لأن ما بنيتموه موجود في كل مكان، وما هدمتموه فريد في العالم».

ــ ٩ ــ

ودار الزمن بالمسجد أكثر من أربعة قرون حتى أقبل العصر الحديث وبدأت أسبانيا تفتح ذراعيها لاستقبال السائحين من أنحاء العالم، ووجدت أن الآثار الإسلامية أعظم مورد سياحي يعتمد عليه لاجتذاب الزوار.

وهكذا فمنذ عدة سنوات، اتخذ الجامع ــ الكنيسة شكل متحف يتم الدخول إليه بعد دفع رسم الزيارة. وبدأت عملية نزع بعض الاضافات النصرانية عن الجدران والسقوف والقباب، وعادت إلى الوجود العبارات الإسلامية تشرق بماء الذهب على الجدران، وبرز من جديد محراب الحكم المستنصر بالله آية في الذوق والجمال.

ولا زالت في صحن الجامع بركة ماء، وبجانبها شجيرات النارنج ولا زال الزائر يدلف إلى المسجد ــ الكنيسة ــ المتحف ، فيستشعر رهبة وخشوعاً، ويرى بعينيه زمناً يمتد في الماضي أكثر من ألف ومائتي سنة.

هوامش

١ — ج.س. كولان: الأندلس/ دائرة المعارف الإسلامية، بيروت. ١٩٨٠ ص ١١٨.

٢ — المراكشي عبد الواحد بن علي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٧٢.

٣ — لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام/ تحقيق بروفنسال، بيروت ١٩٥٦ ص ٤٣.

٤ — ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك: كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس/ نقلاً عن نفح الطيب للمقري — القاهرة ١٩٦٦ ج٢ ص ٩٩.

٥ — الحميري: محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار/ تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥ ص ١٦٨.

٦ — الإدريسي: الشريف محمد بن عبد العزيز: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزائر ١٩٤٩ ص ١٥٣.

٧ — كولان: الأندلس بيروت ١٩٨٠ ص ١٠٩.

٨ — الحميري: جذوة المقتبس في ذكر رحاب الأندلس، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٨٩.

٩ — المقرى أحمد بني: نفح الطيب، بيروت ١٩٦٨ ج٢/ ص٩٦ — ٩٧.

١٠ — السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، بيروت ١٩٧١ ج١ ص ٢٩٠.

١١ — الإدريسي: نزهة المشتاق (وصف الجامع) ص ٦.

١٢ — المقري نفح الطيب، بيروت ١٩٦٨ ج١ ص ٣١٧.

١٣ — ج.س. كولان: الأندلس بيروت ١٩٨٠ ص ١٥٧.

١٤ — ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت ١٩٥٠ ج٢ ص ١٢٦.

١٥ — كولان: الأندلس، بيروت ١٩٨٠ ص ١٥٧ — ١٥٨.

١٦ — ابن عذاري: البيان المغرب، بيروت ١٩٥٠ ج٢ ص ٣٤٣.

١٧ — ليفي بروفنسال (نقلاً عن السيد عبد العزيز سالم) تاريخ المسلمين وأثرهم في الأندلس بيروت، ١٩٨١ ص ٣٩١.

١٨ — ابن عذاري: البيان المغرب، بيروت ١٩٥٠ ج٢ ص ٣٥٢.

١٩ — ابن عذاري: البيان المغرب، بيروت ١٩٥٠ ج٢ ص ٣٥٤.

٢٠ — ابن عذاري : البيان المغرب، بيروت ١٩٥٠ ج٢ ص ٣٥٤.

٢١ — ابن عذاري: البيان المغرب، بيروت ١٩٥٠ج٢ ص ٣٥٨.

٢٢ — المقري: نفح الطيب، بيروت ١٩٦٨ ج٢ ص ٨٩.

٢٣ — السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٦.

٢٤ — السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور، القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٦.

٢٥ — المقري: نفح الطيب، بيروت ١٩٦٨ ج٢ ص ٩٧.

٢٦ — الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٦.

٢٧ — ابن عذاري: البيان المغرب، بيروت ١٩٥٠ ج٢ ص ٤٢٨.

٢٨ — المقري: نفح الطيب، بيروت ١٩٦٨ ج٢ ص ٨٤.

٢٩ — المقري: نفح الطيب، بيروت ١٩٦٨ ج٢ ص ٦٠.

٣٠ — ابن عذاري: البيان المغرب، بيروت ١٩٥٠ ج٢ ص ٤٢٨.

٣١ — المقري: نفح الطيب ج٢ ص ٩٠.